أسباب التمكين الحضاري من خلال حديث:
" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له "

صفية حسين: طالبة دكتوراه
كلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر1

المقدمة:

إنّ السنة النبوية لها أهميتها ومكانتها في حياتنا، وتتجلى أهميتها فيما تحتويه من إعجازات وتوجيهات في شتى مجالات الحياة: في العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب والفنون وفي كل ما فيه مصلحة الفرد والمجتمع فلا خُلُق لنا إذا لم يكن من أخلاق المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، ولا قيم لنا إذا لم نقتبسها من هدي من بُعث ليتمّم مكارم الأخلاق، ولا حضارة لنا إذا لم يكن مصدرها من منهج النبي صلى الله عليه و سلم الذي بنى حضارة دان لها المشرق والمغرب.

لقد أكّد القرآن الكريم أن الله خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض، وأنه لا يمكنه تسخير الطبيعة والعالم إلا من خلال العلم والعمل فقط من هذه الحقيقة برهن الإسلام أنه لا يستهدف مدنية قائمة على المادة وحدها ولا ثقافة قائمة على الفكر فقط، وإنما يسعى لبناء حضارة تجمع بين هذا وذاك.

وتأسيسا على هذا، فإن هذه الدراسة تروم تحرير القول في جانب من جوانب المسألة الحضارية و هو التمكين الحضاري، لبيان الأسباب الموصلة إلى تحقيقه وفق المنهج الرباني وذلك انطلاقا من سنة النبي صلى الله عليه و سلم من خلال واحد من أهم الأحاديث الذي جمع بين العناصر الصانعة للحضارة : الإنسان، الفكر، والأشياء؛ وهو الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال :" **إِذَا مَاتَ الإِنسَانُ انقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ** ".

المبحث الأول: مفهوم التمكين الحضاري:

أولا: مفهوم التمكين:

أ- التمكين في اللغة: تدور كلمة التمكين في كتب اللغة على عدة معان أهمها:

1/ **الاستقرار والثبات**: يقول الزمخشري: "مكنته من الشيء وأمكنته منه فتمكن واستمكن، ومكّن مكانة فهو مكين، أي ثبت واستقر فهو ثابت ومستقر[1]، ومنه قوله تعالى: "ثم جعلناه في قرار مكين" [2] أي ثابت محفوظ يحفظ فيه -وهو الرحم- والملاحظ من كلام الزمخشري أنّ المادة تدل على الاستقرار، والثبات، سواء كان هذا الثبات حسيا أو معنويا.

2/ **الإقدار على التّصرّف و الهيمنة:**

يقول الفيروز آبادي في القاموس المحيط: (المكانة التؤدة، والمنزلة عند الملك، ومكّنته من الشيء وأمكنته منه فتمكّن واستمكن) [3]، ومكّن له في الشيء جعل له عليه سلطانا وقدرة قال تعالى: "إنّا مكّنا له في الأرض" [4] والظاهر أن الكلمة انتقلت من الاستعمال الحقيقي: (مكن) ثبت في مكانه، واستقر فيه إلى المعنى المجازي: (مكن) عند الناس أي: صار مكينا، ذا مكانة وسلطان، ومنه قوله تعالى في حقّ يوسف عليه السلام: " إنّك اليوم لدينا مكين أمين" [5] وممّن ذهب إلى ذلك علماء التفسير كالزمخشري والآلوسي حيث عدّوا أصل التمكين أن يجعل له مكانا يتمكن فيه، ثم استعير للتسليط و إطلاق الأمر وشاع في ذلك حتى صار حقيقة لغوية كما في قوله تعالى " ونمكن لهم في الأرض" [6] أي نسلّطهم على أرض مصر يتصرّفون وينفذ أمرهم فيها كيف ما يشاؤون [7] وفي اللغة الإنجليزية تعني كلمة مكّن (Empowerment) إعطاء الشخص تحكماً أكثر في حياته [8].

ب- التمكين في القرآن الكريم:

استخدم القرآن الكريم كلمة التمكين بمعان متعددة، غالبا ما يحددها السياق وسأقتصر على ما له علاقة بالموضوع، ومن ذلك:

الملك والسلطان: كما في قوله تعالى مخبرا عن ذي القرنين: "إنا مكّنا له في الأرض"، أي آتيناه ملكا عظيما [9].

- **المنزلة عند السلطان:** قال تعالى مخبرا عن يوسف:" وكذلك مكّنا ليوسف"، أي صيّرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر. [10]
- **المستقر الحصين**: ومنه قوله تعالى في سورة "المؤمنون": (ثم جعلناه نطفة في قرار مكين)[11] أي: جعلنا نسل آدم عليه السلام ماء قليلا في مستقر حصين وهو الرحم [12].

- **التثبيت والهيمنة** [13] : كما ورد في سورة النور في قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و**ليمكنّن** لهم دينهم الذي ارتضى لهم و ليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنا" [14]

قال الإمام النسفي – رحمه الله – :"وعدهم الله تعالى أن ينصر الإسلام على الكفر ويورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء، كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة وأن يمكن الدّين الذي ارتضى لهم وهو دين الإسلام وتمكينه: تثبيته وتعضيده وأن يؤمن سربهم، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه" . [15]

وهذه الآية الكريمة تعدّ عمدة قضية التمكين، لما اشتملت عليه من آداب وأحكام بداية من الآداب التي تخص الفرد المسلم ومرورا بالآداب والأخلاق التي تنظم علاقة الإنسان بالإنسان داخل الأسرة الواحدة، وانتهاء بالحديث عن الآداب والسلوكيات التي تخص المجتمع بصفة عامة التي تنشئ حضارة قرآنية، وتمكن للمجتمع الذي تسود فيه تمكينا ماديا ومعنويا على حد سواء .

ج- التمكين اصطلاحا :

عرّف الطاهر بن عاشور التمكين بأنّه: "قدرة على التصرف في منافع الأرض والاستظهار بأسباب الدنيا، بأن يكون في منعة من العدوّ و في سعة في الرزق و في حسن حال" [16] وعرّفه بعضهم بأنه: " قانون الله المطرد في خلقه، ونظامه الحاكم المهيمن في أفعالهم الذي إذا اتبعه عباده أقدرهم على التصرف في أرضه، والهيمنة عليها، وجعل لهم مكانة مكينة في كيفية التعامل مع مفرداتها وإحسان توظيفها" [17] . والواضح أنّ التّمكين في الاصطلاح لا يخرج عن التعريف اللّغوي ولا عن المدلول القرآني فهو : "إعطاء الفرد القدرة على التصرف في الأرض من أجل الهيمنة عليها وتحقيق الاستخلاف فيها وفق سنن الله و دينه الذي ارتضاه لعباده."

ثانيا : مفهوم الحضارة :

الحضارة في اللغة : تطلق على عدة معانٍ منها :

1/ ضد الغياب: يقال: حَضَر يحْضَر حُضورًا وحضارة.

2/الإقامة في الحضر، والحاضرة ضد البادية، وفي تاج العروس: الحضارة والحضرة هي المدنة والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار، التي يكون لهم بها قرار.

قال ابن فارس [18] : الحاء و الضاد والراء ايراد الشيء، وروده و مشاهدته. والحضر خلاف البدو. وسكون الحضر الحضارة، فكأنّ المقابلة بين الحضارة والبداوة هي مقابلة

بين حياة الاستقرار وحياة التنقل، لهذا يوصف أهل الحضر بأنهم أهل القرار و"أهل المَدَر"[19] و"أهل الحَجَر" لأنهم يسكنون بيوتا من الطين والحجر؛ خلافا لأهل البادية "أهل الوَبَر" و"أهل الحَدَر"[20] وفي المعاجم الأجنبية ؛ مصطلح "الحضارة " (Civilization) مشتقّ من الجذر اللاتيني « Civite » مدينة و"Civis" ساكن المدينة أو "Civilis" مَدَني. ويقصد به الاستقرار في الحواضر والمدن، مع ما يستتبعه ذلك من اجتماع وتنظيم.

2/ الحضارة اصطلاحا:

توسع المفكرون في تعريف الحضارة وبيان مقوّماتها وعناصرها الأساسية، ولا يتسع المجال لسرد تعريفاتهم المتعددة، وسنكتفي بذكر ثلاث تصورات مختلفة تجمع بين الفكر الإسلامي القديم: والمتمثل في الفكر الخلدوني؛ والفكر المعاصر: ويمثله مالك بن نبي وبين الفكر الغربي: ويمثله ويل ديورنت.

1/ تعريف ابن خلدون (ت 808):

الحضارة في التصوُّر الخَلدُوني: " النمط من الحياة المستقرة التي تقتضي فنوناً من العيش والعلم والصنائع وإدارة شؤون الحياة وسياسة الأمم والشعوب وازدياد حياة الترف وأسباب الرفاهية "[21]، فكلما كثرت العلوم والصنائع يكثر العمران وتعظم الحضارة وهذا التعريف ركّز على الجانب المادي والمعنوي. والحضارة في التصور الخلدوني، مرحلة طبيعية من عمر المجتمع البشري يصل إليها الإنسان حين تتجاوز مطالبُه الحياتية الضروري إلى ما فوقه من حاجيات وكماليات[22] ، إذ تبتدئ بطور البداوة والخشونة ثم تتحول إلى طور الحضارة والدعة والرقي، وأخيراً تفقد عِزّها وتسقط وتفتر قُواها[23] فمفهوم الحضارة في نظر ابن خلدون، يرتبط أشد الارتباط بالتاريخ من منطلق أنه يريد به طوراً تاريخياً في حياة المجتمع يصبو إليه أهل البدو باستمرار.

2/ تعريف (ويل ديورنت):

"هي نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون،"[24]. ويركّز هذا التعريف على البعدين المادي والفكري من أبعاد التقدم.

3/ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي رحمة الله عليه (1905-1973م):

يرى في كتابه "في لهيب المعركة"، أنّ الحضارة هي روح الشعب، وأنها الفيْصَل بين الإنسانية والبدائية، وأنّ مشكلة أيّ أمّة إنّما هي مشكلة حضارية. فيقول إنّ" الحضارة

يجب أن تحدّد من وجهة نظر وظيفيّة، فهي مجموعة الشّروط الأخلاقية والماديّة التي تتيح لمجتمع معيّن، أن يقدّم لكلّ فرد من أفراده، في كلّ طور من أطواره وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضّروريّة له في هذا الطّور، أو ذاك من أطوار نموه[25] وحدّد مالك بن نبي مقوّمات الحضارة وعناصرها الأساسية فقال: "حضارة = إنسان + تراب + وقت. فمشكلة الحضارة تتحلّ إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأنْ نكدّس المنتَجات، وإنما بأنْ نحلّ المشكلات الثلاثَ من أساسها[26]. يبقى عنصر هام ينبهنا إليه مالك بن نبي في هذه المعادلة و هو عنصر ثنائي، يتمثل في توجيه المبدأ الأخلاقي كعنصر من عناصر بناء الحضارة، والمبدأ الجمالي- وهو الإطار الذي تتكون فيه الحضارة[27] وعلى هذا فإن العناصر الباعثة للحضارة هي: العلم، الأخلاق الجمال، الزمن، الحياة الدنيا والإنسان فالحضارة عند مالك بن نبي لا توضع في مقابل البداوة كما يذهب معظم المفكرين ففي ذلك طمس لمعالم البداوة التي تمثل إحدى روافد حضارة مجتمعنا العربي الإسلامي، مقابل البدائية لا البداوة[28]، وهي ليست مرادفة لكلمة مدنية، كما يذهب إلى ذلك مؤلف كتاب الحضارة ويل ديورانت، بل الحضارة سياج حصانة للإنسان تحميه من الهمجية.

ثالثا: مفهوم التمكين الحضاري:

بعد تعريف كل من التمكين والحضارة يمكن أن نعرّف مصطلح التمكين الحضاري تعريفا يجمع بين الصفة " الحضاري " والموصوف " التمكين"، فيكون كالآتي: هو "إعطاء الفرد القدرة على التصرف من أجل بناء نظام اجتماعي يعينه على تحقيق الاستخلاف في الأرض وفق سنن الله ودينه الذي ارتضاه لعباده." فحقيقة الاستخلاف في الأرض ليست مجرد الملك والقهر والحكم... إنما هي هذا كلّه على شرط استخدامه في الإصلاح و التّعمير و البناء[29].

المبحث الثاني: دراسة عامة للحديث:

أولا: تحليل البنية اللغوية للحديث:

1/ **التركيب النحوي**: يتضمن الحديث أسلوبين من أساليب اللغة العربية:

الأول: الشرط. **والثاني** : الاستثناء. و قد تقدم الشرط على الاستثناء.

ومعنى الشرط أن يقع الشيء لوقوع غيره، أي يتوقف الثاني على الأول[30] واجتماع أسلوب الشرط والاستثناء يعبر عن أهمية المستثنى منه؛ فالشرط يؤكد على ربط الجواب بالشرط فالقول بأن الانسان إذا مات ارتبط بالجواب "انقطع ثواب عمله" وهذا فيه تيئيس

وخيبة ولكن يأتي الأمل والتفاؤل مع الاستثناء" إلا من ثلاث"، وهذا فيه تشويق لما سيأتي بعد الاستثناء. وذكر العدد "ثلاث" فيه تحفيز للانتباه لما بعده، فالثواب يتجدد بثلاثة أعمال فإن لم تكن كلها فواحد منها. ومن هنا فإن الصياغة النحوية للحديث بالشرط و الاستثناء أقوى وأبلغ في الحث على فعل الخير وربط الجزاء بالعمل والتأكيد عليه.

2/ الدلالة اللغوية للحديث:

مات: من الموت، قال في المقاييس: « الموت: أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء منه: الموت خلاف الحياة »[31]. و مَاتَ الرَّجُلُ : زَالَتِ الْحَيَاةُ عَنْهُ.

انقطع عمله: لم يعد ممكنا أن يزيد فيتجدد ثوابه.

صدقة جارية: الصدقة في اللغة: ما يعطى على وجه القربى لله لا المكرمة[32] جارية : مستمرة .

العلم النافع: العلم في اللغة: مصدر الفعل علم يعلم علما، قال ابن فارس: العين واللام والميم أصل صحيح يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، من ذلك العلامة وهي معروفة. والعلم نقيض الجهل.[33] وفي الاصطلاح: قال الجرجاني: العلم هو: الاعتقاد الجازم المطابق، وقيل : العلم هو إدراك الشيء على ما هو به. والجهل نقيضه[34].

الولد الصالح: الولد في اللغة: اسم يجمع الواحد والكثير، والذكر والأنثى[35] و الصلاح ضد الفساد.

ثانيا : تخريج الحديث:

روى مسلم[36] هذا الحديث من طريق يحيى بن أيوب و قتيبة - وهو ابن سعد- وابن حجر قالوا حدثنا اسماعيل – وهو ابن جعفر- عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :" **إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**". ورواه البخاري في الأدب المفرد[37] بلفظ: "إذا مات العبد....."، وأصحاب السنن الثلاثة: [أبو داود، الترمذي، النسائي][38] بلفظ "إذا مات الانسان".

ورواه ابن أبي الدنيا[39] بلفظ : "إذا مات ابن آدم" وهذا اللفظ هو أشهرها دورانا على الألسنة مع عزة مخرجه فإنه لم يخرجه من المسندين إلا ابن أبي الدنيا وذكره النووي في رياض الصالحين[40] بهذا اللفظ وتبعه في ذلك جماعة من العلماء منهم : ابن حجر في التلخيص الحبير[41] وعزاه لمسلم، والزيلعي في نصب الراية[42]، وغيرهم.

ثالثا: المعنى العام للحديث:

قال النووي في شرح مسلم، في كتاب الوصيَّة، باب "ما يلحق الإنسان من الثَّواب بعد وفاته": قال العلماء: "معنى الحديث: أنَّ عمل الميِّت ينقطع بموته، وينقطع تجدُّد الثَّواب له، إلاَّ في هذه الأشياء الثَّلاثة لكونه كان سببها، فإنَّ الولد من كسبه، وكذلك العلم الَّذي خلَّفه

من تعليم، أو تصنيف، وكذلك الصّدقة الجارية، وهي الوقف.[43] فمن البديهي أن طاقة الإنسان على العمل تنتهي بموته، وأن المرء لا يثاب إلا على عمله. ولكن رسول الله ﷺ يقرر في هذا الحديث أن هناك ثلاثة أشياء لا ينقطع ثواب ابن آدم على ما يجد منها بعد موته فجميع ما يصل إلى العبد من آثار عمله ثلاثة:

الأول : أمور عمل بها الغير بسببه وبدعايته وتوجيهه - صدقة جارية-

الثاني: أمور انتفع بها الغير اقتداء به في الخير؛ لأن الدال على الخير كفاعله - علم ينتفع به-

الثالث: أمور عملها الغير وأهداها إليه، كصدقة أو دعاء - ولد صالح يدعو له-

وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدة منافع، كالولد الصالح العالم الذي سعى أبوه في تعليمه، وكالكتب التي يقفها أو يهبها لمن ينتفع بها[44].

المبحث الثالث: أسباب التمكين الحضاري في الحديث:

1/مفهوم السبب :

أ – السبب في اللغة : عبارة عما يمكن التوصل به إلى مقصود ما، ومنه سمي الحبل سببا والطريق سببا لإمكان التوصل بهما إلى المقصود ولهذا يقول ابن منظور : " السبب كل شيء يتوصل به إلى غيره "[45]

ب – تعريف السبب في الاصطلاح: عرف الأصوليون السبب بتعريفات كثيرة، لكن أَوْضَح هذه التعريفات وأقربها هو: الوصف الظاهر المنضبط الذي أضاف الشارع إليه الحكم ويلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم لذاته[46].

فهو إذن وصف ظاهر منضبط جعله الشارع علامة على الحكم وربط وجود الحكم بوجوده وعدم الحكم بعدمه، فيلزم من وجود السبب وجود الحكم، ويلزم من عدم السبب عدم الحكم. وعرفه الزمخشري بأنه: ما يتوصل به إلى المقصود من علم، أو قدرة، أو آلة"[47].

وبناء على ما سبق فإن أسباب التمكين الحضاري هي تلك الأوصاف التي يتوصل بها إلى بناء الحضارة والتمكين في الأرض، بحيث توجد الحضارة بوجودها وتنعدم بانعدامها.

و هذا ما سنوضحه من خلال حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي بين أيدينا.

2/بيان أسباب التمكين الحضاري في حديث: "إذا مات الانسان انقطع عنه عمله....."

الحديث يتكلم عن ثلاث مجالات مختلفة :

- مجال التكافل الاجتماعي "صدقة جارية ".
- مجال الإنتاج المعرفي و الفكري "علم يُنتفع به ".
- مجال التربية "ولد صالح يدعو له ".

والإعداد الجيّد لهذه المجالات يمثّل أسباب التّمكين الحضاري إذ لا يمكن لأيّ حضارة أن تقوم إلا بالإعداد لها سواء من الجانب المعنوي أو من الجانب المادي. وقد اهتم النبيﷺ –خلال مساره الدعوي - أشد الاهتمام بالإعداد المعنوي والذي يمثل السبب الرئيسي في بناء الانسان الذي هو الأساس الأول للتمكين. فأمر بالالتزام بالمنهج الرباني ودعا إلى الوحدة والصبر والثبات والحكم بالعدل... وغيرها من القيم الحضارية.

وكما أنّ الإعداد المعنوي مطلوب، فكذلك الإعداد المادي مطلوب أيضا، وهذا ما أوضحه النّبيّﷺ في هذا الحديث، حيث أشار إلى ثلاثة عوالم [48] يمثل كل عالم منها أساسا من أسس التّمكين الحضاري وهي عالم الأشياء وعالم الأفكار وعالم الأشخاص، وليس بمقدور هذه العوالم التأثير والاشتغال إلا إذا ترابطت وتلازمتْ، وأيّ خَلل يطال أحدها أو بعضها فمعناه التعطُّل عن العمل أو العمل الناقص. وبيانها كالآتي:

– عالم الأشياء وهو مجال التكافل الاجتماعي في قوله صلى الله عليه وسلّم" صدقة جارية" و يمثل الإعداد المادي والاقتصادي.

– عالم الأفكار وهو مجال الإنتاج المعرفي والفكري في قولهﷺ "علم يُنتفع به." ويمثل الإعداد العلمي.

– عالم الأشخاص أو مجال التربية في قوله صلى الله عليه وسلّم" ولد صالح يدعو له."ويمثل الإعداد البشري.

أولا : الإعداد الاقتصادي:

فلا يعقل أن يمكّن لأمة وهي تستجدي طعامها من غيرها من الأمم، لذلك حث الاسلام على العمل واعتبره عبادة ودعا إلى التكسب فقد جاء في الحديث: " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإنّ نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده".[49] كما حرص الاسلام على توفير المال بجعل الزكاة ركنا من أركان الاسلام والحث على الصدقة ولم يحصر الصدقة في صدقة التطوع فقط بل جعل منها الصدقة الجارية، لما فيها من بر، وخير وإحسان، وعدم انقطاع الثواب .

والصدقة الجارية هي ما اصطلح عليه الفقهاء بالوقف؛ لما فيه من تثبيت الأصل، وتسبيل المنفعة [50].

ويعدّ الوقف أحد معالم الحضارة الإسلامية، التي كان لها إسهامها وآثارها في تميّز الأمة الإسلامية. هذا النظام، الذي وإن عرف عند بعض الحضارات غير الإسلامية ، فقد جاء في أضيق مجالاته دون الغاية السامية التي أوجد من أجلها في الإسلام، وهي طلب الأجر والثواب من الله عز وجل، إذ كان الدافع الأكثر بروزاً في توجه بعض أصحاب المبرّات الإنسانية غير الإسلامية إلى هذه الأعمال هو طلب الجاه أو الشهرة، أو خلود الذكر، بينما كان المحرك الأساس في أعمال البر والإنفاق عند المسلمين هو ابتغاء مرضاة الله عز وجل سواء أعلم الناس أم لم يعلموا [51].

ونظراً لسمو الغاية التي شُرع الوقف من أجلها في الإسلام، فقد شهد بداية قوية في عصر النبي ﷺ، وشهد نموا وتطورا كبيرا في عصور الخلفاء الراشدين من بعده، ولم يمض إلا زمن يسير حتى بات أثر الوقف واضحاً، وتعددت مجالاته: الدينية، والثقافية والتعليمية، والصحية، والاجتماعية، وغيرها.. فشملت قطاعاً عريضاً من المجتمع الإسلامي.

فهذا الحديث بإشارته إلى هذا النوع من الصدقة التي لا يحدها زمان ولا مكان كان له كبير الأثر في الإسهام الحضاري في بعده المعماري؛ والناس بسماعهم لهذا الحديث لا يزالون يشيدون المساجد والمستشفيات والمدارس.... حتى أصبحت موارد الأوقاف تغطي قطاعاً عريضاً من احتياجات المجتمع الإسلامي عبر عصوره المختلفة مما خُصصت له في عصورنا الحاضرة وزارات وإدارات عدة. ومع هذا فقد تراجعت فاعلية الأوقاف في هذا الزمان، فأصبح الوقف يعيش حالة ركود تستدعي التنادي إلى دراسة الأسباب وبحثها رغبة في تنشيط دور الوقف للقيام بالمهام الريادية التي كان يقوم بها في إثراء الحضارة الإسلامية عبر عصورنا المختلفة [52].

وعند البحث في تاريخ الأوقاف الجزائرية قبل العهد الاستعماري- أي خلال العهد العثماني- نجد أنها كانت تلعب دورا هاما في حياة المجتمع، فكانت توفر مناصب شغل هامة حتى خارج المناصب الدينية، وكانت تسهم في إصلاح حال الفقراء والمحتاجين، وترقية التعليم، وتوفير الخدمة العمومية من خلال ماء السبيل، وإصلاح الطرقات، والإنفاق على الحصون... إلا أن الأوقاف الجزائرية بدأت تعرف تقهقرا وتراجعا كبيرين خلال العهد الاستعماري، حيث بادر المستعمر الفرنسي إلى مصادرتها [53]، ومحاولة تقزيم أي دور لها في المجتمع، نظرا لتفطنه لمدى الاستقلالية التي كانت تمنحها هذه الأوقاف للمجتمع ليخدم

نفسه بنفسه ؛ فعمد إلى تحطيم البنية الأساسية لتركيبة هذه الأملاك الوقفية ليتمكن من بسط سيطرته على الجزائريين.

وفي هذا الصدد كتب أحد الفرنسيين(بلانكي Blanqui) قائلا : "إن مناعة الأملاك المحبسة أو الموقوفة تشكل إحدى العوائق التي لا يمكن التغلب عليها أمام الإصلاحات الكبرى التي هي وحدها القادرة على تحويل الإقليم الذي أخضعته أسلحتنا إلى مستعمرة حقيقية "[54] ومن هنا يمكن تحديد أهمية الأوقاف في بناء اقتصاد الأمة والسير بها نحو التقدم الحضاري.

ثانيا: الإعداد الفكري:

وهو سبب رئيسي من أسباب التمكين، وقد ركز عليه مالك بن نبي في المحلّ الأول لأن عنى المجتمع وقوته لا يُقاسان بما يَحُوزه من أشياء، بل بمقدار ما لديه من أفكار.[55] فالأمة التي تريد أن تشق طريقها بين الأمم وتأخذ موقعها لابد لها أن تأخذ بهذا السبب.

وما من حضارة كانت أبجديتها الأولى " اقرأ" سوى حضارة الإسلام التي أجلّت العلم، وذكرت وسائله: القراءة، "اقرأ"، والكتابة "الذي علم بالقلم"[56].

وقد ربط ابن خلدون بين الحضارة و اتساع العلوم وازدهارها، فقال:" العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة".[57]

وليس المقصود بالعلم أي علم بل العلم الذي ينفع به العالم مجتمعه ؛ وهو العلم المنضبط بتعاليم الله، لئلا ينحرف عن جادة الإعمار المثمر. وبما أنّ تفوق الشعوب بعضها على بعض يقاس اليوم على أساس العلم والمعرفة، فإنه يلزم على المسلمين أنْ يتعلموا جميع العلوم والفنون التي تساعد على ضمان تفوقهم، و عدم احتياجهم إلى غيرهم.

ومن ثمّ فإنّ أيّ إنتاج فكري ينتجه الإنسان لا يدخل في دائرة الحضارة ما لم يتداول ويشيع وتتم الفائدة من ورائه؛ فأي اختراع لا ينتشر ولا يوظف لمصلحة البشرية لا يعد إسهاماً حضاريا لأن هذا الاختراع لم يشع استعماله ولم تعم به الفائدة وإنما أصبح دليلا على عبقرية المخترع. فليس المهم وجود العقول المفكّرة؛ ولكن المهم كيف توجه هذه العقول لتؤتي أكبر قدر من الفعالية في ظل كيان حضاري له سماته وخصائصه العقدية والفكرية.[58]

لقد ربط النبي ﷺ بين الإعداد الاقتصادي والإعداد الفكري، ذلك أن المجتمع الذي يصاب بالوهن[59] في جانبه المادي إنما يكون ذلك نتيجة حتمية لوهن في فكره. والوهن مرض نفسي خطير وهو منزلة بين منزلتي الموت والحياة[60] وينعكس هذا المرض على المجتمع الذي يصاب بنتائج أي انحراف في الفكر، والأمر لا يتوقف على الارتباط بين عالمي الأفكار والأشياء، ولكن لا بُدّ من ارتباط الأفكار التي تسهم في صياغة الحدث الحضاري فيما

بينها، وأنّ كل تلف يطرأ على روابط الأفكار فيما بينها لا بُدّ من أنْ يتولد عنه اضطراب في الحياة الاجتماعية- ، وعندما تفقد قوالب الأفكار منطقها العملي، فعندئذ تموت الأفكار وتظل العقول خاوية فيكون المجتمع مرغماً بالاستعاضة ببدائل ولا سيما في أوجه نشاطه الفكري. وإذا حدث في الوقت ذاته أنْ فقد المجتمع السيطرة على عالم الأفكار كان الخراب ساحقاً، أما إذا استطاع أنْ ينقذ أفكاره فإنه يكون قد أنقذ كل شيء أو أنه يستطيع أنْ يعيد بناء (عالم الأشياء) [61].

ويعلق المفكر الإسلامي مالك بن نبي على المنجزات العلمية للحضارة المادية الغربية أنها: " ليس إلا من المكتسبات، لا من العناصر الأولية" [62] للحضارة وهكذا فإنه من يحمل قلمه و يرفع قيم دينه يسهم في إنتاج حضارته، وأما من يحمل القلم ليرفع قيم غيره كان كمن يكدس منتجات غيره. وتكديس المنتجات لا يسميه عاقل حضارة ؛ ومن ثمّ كانت قيمة الانسان على قدر تحصيله العلم و النفع به.

وقد جعل النبي ﷺ النفع في العلم شرطا لحصول الثواب المستمر، ولا يكون العلم نافعا إلا إذا ارتبط باسم الله "اقرأ باسم ربك الذي خلق"[63]، والتزم بمنهج الله " إنما يخشى الله من عباده العلماء" [64] وسعى لنشر الخير بين الناس "إنّ الله و ملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير". [65]

ثالثا: الإعداد البشري:

الإنسان هو العنصر الأهم في البناء الحضاري، ولا قيمة لأي عنصر من عناصر القوة إذا لم يكن العنصر البشري معدا جيدا، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ بالتربية الصالحة للولد. ويقصد بالتربية الصالحة: التربية الدينية والخلقية والفكرية.... وكل ما يهدف إلى تكوين الفرد و إصلاحه. والتربية الخلقية هي أساس عظمة الأمم وارتقائها، فما ارتقت أمة إلا بسمو أخلاق أفرادها، وما انحطت أمة إلا بزوال الأخلاق الفاضلة من نفوس أبنائها ؛ ولله در الشاعر أحمد شوقي إذ يقول: وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت*** فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا كما أن مفهوم الحضارة لا يمكن إطلاقه على أي مجتمع يشهد غياباً لقيمه الخلقية، وهذا ما أشار إليه سيد قطب حين يقول: «الإنسان في التصور الحضاري الإسلامي أكرم من كل شيء مادي، فهو خليفة الله في الأرض بإقامة قيم العدل والأخلاق التي شرعها الله، وبه يكون العمران والتحضر في الأرض، ولذلك فالحضارات التي أهانت الإنسان ليس لها في ميزان الحق شيئا، ولا يجوز أن يعتدى على أي مقوم من مقوماته الإنسانية مقابل كسب مادي» [66] فالأخلاق : "علم موضوعه تنظيم النشاط الإنساني" [67]

فكلما كان الفرد سليما كان بناء الأمة سليما، وكلما كانت أخلاق الأمة قوية نقية كانت اتجاهاتها سليمة و هدفها مستقيما. فليست التربية تكديس المفاهيم والتبحر في معرفة القيم والمبادئ بقدر الحاجة إلى تطبيقها في الواقع وتفعيلها في عملية التغيير النفسي والاجتماعي، وهذا ما أوضحه مالك بن نبي في قوله:" ليست التربية من إنتاج المتعالمين وبحار العلوم، الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم، دون أن يلموا بما تتزاحم عنه هذه الكلمات من وقائع، خيرا كانت أو شرا، وأولئك الذين يعرفون جميع المبادئ والتعاليم التي جاءت في الإسلام، دون أن يستطيعوا تطبيق مبدأ أو تعليم واحد لتغيير أنفسهم، أو تغيير بيئتهم. فكل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص، والأفكار، والأشياء، هي حقيقة ميّتة وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين، هي كلمة فارغة، كلمة ميّتة مدفونة في نوع من المقابر، نسميه: القاموس". [68] وهذا ما حرص عليه النبي ﷺ بتوازن القوى المختلفة في المجتمع، وبناء الأمة بناء متراصا لا ثغرة فيه ولا وهن... بناء قويا في جسمه" صدقة جارية"، قويا في فكره" علم ينتفع به"، قويا في خلقه" ولد صالح"، فتراه يربط بين هذه القوى برباط الثواب الذي لا ينقطع بعد الموت، ويشد بعضها إلى بعض حتى لترى المسلم قويا في كل ناحية من نواحي حياته.

فالأخلاق ذات الأثر العام في المجتمع ؛ هي تلك التي تكون روح الحضارة. فعن أبي هريرة رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ :" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .[69]

ومن هذا المنبع انطلقت رحلة بناء الهرم الحضاري، فوضع الأساس " العقيدة" وصفّت فوقه اللّبنات الأساسية للحضارة : الأخلاق- العلم – المال.

ولله درّ الشاعر حافظ ابراهيم و هو يجمع بين هذه اللّبنات فيقول:

والمال إن لم تدخره محصنا *** بالعلم كان نهـــاية الإمـــــلاق

والعلم إن لم تكتنفه شمائل *** تعليه كان مطية الإخفـــــــاق

لا تحسبن العلم ينفع وحده *** ما لم يتـــوّج ربّـــه بخـــــــلاق

فهذه العناصر يلزم أن تترابط فيما بينها لتحقيق الفعل الحضاري، والذي يربط أو يدمج بعضها في بعض، ويزرع الروح فيها إنما هو العقيدة الدينية. فـ"الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحْي يهبط من السماء ويكون للناس شِرْعة ومِنْهاجاً، مثلما حدث مع جزيرة العرب إذ تفجرت حضارتها بعد بعثة النبي ﷺ" [70] .

ولهذا نجد مالك بن نبي يجمع في تعريفه للحضارة -انطلاقاً من بعدها الوظيفي- بين الشروط الأخلاقية والمادية التي تسمح لمجتمع ما أن يقدم لكل فرد من أعضائه الضمانات

الاجتماعية اللازمة لتقدمه في كل طور من أطوار وجوده.[71] فيجعل مخ الحضارة العلم والعقل، وروحها الأخلاق، ومظهرها ذوق الجمال، ووعاؤها الزمن، وميدانها الحياة الدنيا ومحورها الإنسان[72].

الخاتمة:

بعد هذا العرض المتواضع لأسباب التمكين الحضاري في حديث النبي ﷺ: " إذا مات الانسان انقطع عنه عمله....." يمكن أن نخلص إلى الاستنتاجات التالية:

1- أن التمكين له أسباب ووسائل يتوصل بها إلى تحقيقه، وقد أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى ثلاثة منها وهي: الأخلاق، والعلم، والمال.

2- أن التمكين الحضاري يقوم على ثلاثة عناصر أساسية: إعداد الولد – بالتربية الصالحة- وإعداد الفكر – بالعلم النافع-، وإعداد القوة المادية – بالصدقة الجارية-

3- أن التمكين الحضاري لا يؤتي ثماره إلا إذا جمع بين الجانب المادي (الأسباب) والجانب الروحي (الدين).

4- أن الأمة الاسلامية إذا أرادت أن تمكن لحضارتها، فإنّ عليها أن تبنيها على نموذج نبيها، وتضيف إليها البعدين: الإيماني والجمالي.

5- أن الحضارة ترقى ويرتفع شأنها بين الحضارات بسمو مبادئها، وارتقاء غاياتها.

6- أن العلم هو مفتاح كنوز الحضارة، والأخلاق ركيزتها، والعمل الصالح ساحة بنائها.

7- من خصائص العلم النافع أنه سبب لرفعة المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: "يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات"(المجادلة 11)

8- إثبات الإعجاز العلمي في سنة النبي ﷺ ذلك أن كل قيمة تحتاج إليها الأمم في إقامة حضاراتها قد جاء بها الإسلام- قرآنا و سنة- ، وأمر بها وحث عليها.

الهوامش:

1- الزمخشري، أساس البلاغة، ج2 ،ص 396، مادة (م ك ن) .

2- المؤمنون: الآية 13.

3 - الفيروز آبادي، القاموس المحيط ج4 ص 267 مادة م ك ن.

4- الكهف من الآية 84.

5- يوسف 54.

6- القصص، الآية: 6 .

7- انظر الزمخشري، الكشاف، ج392/3؛ تفسير الآلوسي ج 20/ 44.

8-collins york ; english dictionnary ; millenium edition ; librairie du liban publishers; 2000; p 508.

9- الرازي، تفسير الفخر الرازي، 2943/1؛ ابن كثير، تفسير ابن كثير، 189/5.

10-الطبري، تفسير الطبري 20/15؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 160/9.

11- المؤمنون: الآية 13.

12- النسفي، تفسير النسفي، 115/3 .

13-وهو كناية أو مجاز مرسل لأنه يستلزم التقوية ، وقد شاع هذا الاستعمال حتى صار كالصريح أو كالحقيقة. انظر الكشاف، الزمخشري، ج392/3 .

14-النور، الآية: 55- 57.

15- النسفي، ج 3 ص 152.

16- الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، 138/7.

17- د. رمضان خميس زكي الغريب، سنة التمكين، ص 12-13.

18- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، وهذا المعنى الذي استعمله القطامي، مفتخرا ببداوة قومه، مستخفا بساكن المدن، انظر : حسين، د.محمد محمد: الاسلام والحضارة الغربية، بيروت، 1401هـ 1981مج1، ص5، ط4.

19- المدر: الطين العَلِك المتماسك الذي كان يُستعمل للبناء في المدن؛ والوبر: شعَر الإبل والنُّوق الذي يستعمل لصنع الخيام.

20 - الحدر: ما انحدر من الأرض، والتي لا تصلح للبناء.

21 - ابن خلدون: المقدمة، ص160.

22 - مرجع سابق، ص158.

23- ومحور هذه النظرية؛ أن الحضارة تضعف من يملك أسبابها ويستسلم لنعيمها فيستولي عليه الترف فيفسد ويضمحل، وهذا القول يجانبه الصواب لأن الحضارة تقوي الإنسان ولا تضعفه لأنها

معارف وعلوم وخبرة وتجارب وكل هذا يزيد ملكات الإنسان وتفجّر فيه ينابيع القوة. ولكن سوء استخدام هذه العلوم والمعارف هو ما يؤدي إلى الفساد كما حدث لأهل الأمم السابقة .

24- ول ديورانت: قصة الحضارة، ، 3/1.

25-مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص38. وجاء التعريف نفسُه في كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي بالصيغة اللفظية الآتية: "... إنها جملة الشروط المعنوية والمادية التي تسمح لمجتمع بأن يقدم لكل فرد من أعضائه الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه."

26- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص45.

27- مالك بن نبي : آفاق جزائرية ص 46-47؛ و شروط النهضة، 108-109 .

28-عبد الرزاق قسوم، إشكالية الحضارة عند ابن نبي، مجلة الموافقات (المعهد الوطني العالي لأصول الدين – الجزائر) العدد 3 جوان 1994، ص 292.

29-في ظلال القرآن سيد قطب ج 4/ ص 2529.

30- فاضل السامرائي، معاني النحو، 432/4.

31- ابن فارس، مقاييس اللغة : ج5، ص 283.

32-د. ابراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ص 510.

33- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 109/4 (ع ل م).

34-الجرجاني، التعريفات، 161.

35- د. ابراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط،ص 1056.

36- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الانسان من ثواب بعد وفاته رقم1631 .

37- البخاري ، الأدب المفرد 28/1 رقم 38.

38- أبو داود، كتاب الوصايا، باب " ما جاء في الصدقة عن الميت"، رقم 2880؛ والترمذي كتاب الأحكام، باب في الوقف، رقم 1376؛ والنسائي : رقم 3651.

39-ابن أبي الدنيا، كتاب (النفقة على العيال)، رقم 430.

40- النووي، رياض الصالحين، باب فضل العلم، رقم 1383.

41- ابن حجر، التلخيص الحبير، 160/3، رقم 1311 .

42 -الزيلعي، نصب الراية، 198/3.

43- النووي، أبو زكريا يحي بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم، 85/11 حديث رقم: 1631.

44- عبد الرحمن السعدي، بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار ص102.

45- ابن منظور، لسان العرب، 18/3 .

46- الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1 ص110.

47-محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 3 /610.

48- وهذا ما نبه إليه مالك بن نبي في كتابه " ميلاد مجتمع" حيث يرى أن هذه العوالم الثلاثة أساسية لبناء التاريخ الذي بدوره يبني الحضارة . ص24.

49- رواه البخاري.

50- انظر، الكبيسي، أنيس الفقهاء، ص 197.

51- مصطفى السباعي. من روائع حضارتنا، ص.121.

52- أ .د. إبراهيم بن محمد المزيني، الوقف وأثره في تشييد بنية الحضارة الإسلامية، ص 576.

53- وذلك بصدور القرار المؤرخ في 08 سبتمبر 1830 من طرف الجنرال كلوزال الذي أراد من خلاله إلحاق الأوقاف المحبسة على الحرمين الشريفين بأملاك الدولة، وبعد ثلاثة أشهر أصدر كلوزال قرارا آخر والمؤرخ في 07 ديسمبر 1830 أدى إلى إلحاق الأوقاف جميعها بأملاك الدولة الفرنسية، ومنحت التسيير لمصلحة أملاك الدولة (Domaine).

54-الطيب داودي، الوقف وآثاره الاقتصادية والاجتماعية في التنمية، ص83.

55-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص24.

56-العلق: الآية 1 .

57-ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 434.

58-د. قاسم بشرى حميدان، دور العلم و المعرفة في بناء الحضارة، ص242.

59- وهذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه و سلم في قوله لأصحابه: «توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت» أخرجه أبو داود 4299 وأحمد 82/37 بإسناد جيّد. وانظر محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، مجلد 2 حديث رقم 958.

60-عبد الرزاق قسوم، إشكالية الحضارة عند ابن نبي، مرجع سابق، ص 294 – 295.

61- د. سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ص 162.

62- سيد قطب، في ظلال القرآن ، ج1/ ص 61.

63-العلق: الآية 1.

64-فاطر: الآية 28.

65-رواه الترمذي في كتاب العلم، باب:" ما جاء في فضل الفقه على العبادة" ، ج5، ص48 وقال: هذا حديث غريب.

66-سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، ج /1 ص6.

67- دراز ، د.محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، 1مج، ص 96.

68- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص100.

69- رواه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، مج1، حديث رقم:

70- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة. عبد الصبور شاهين، ص51، بتصرف.

71-مالك بن نبي: آفاق جزائرية، مكتبة عمار (القاهرة)، ط. 1971، ص38

72-مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر (الجزائر)، ص 106.